أهداف معهد البحوث والدراسات العربية وخططه

للأستاذ ساطع الحصري

ألقى المرحوم الأستاذ ساطع الحصرى* ، أول مدير للمعهد ، (١٩٥٣ — ١٩٥٦) ، محاضرة عامة على الطلاب ، عند بدء العام الدراسى الأول فى ٢٧ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٣ ، بين فيها أهداف المعهد ، جاء فيها » : —

باسم الله وباسم العروبة أفتتح العام الدراسى الأول لهذا المعهد : معهد الدراسات العربية العالية ، الذى أنشىء بناء على قرار مجلس جامعة الدول العربية .

وأتمنى أن نوفق — أنا وزملائى الأساتذة — إلى إنجاز المهمة الملقاة على عواتقنا فى سبيل خدمة الأمة العربية عن طريق هذا المعهد ، خدمة صادقة .

وأنتهز فرصة هذا الاجتماع العام ، لتوضيح الغاية من إنشاء هذا المعهد ، وتفصيل الخطة التى سنتبعها لتحقيق تلك الغاية .

— ١ —

تعلمون : أن حياة الأمم وأحوالها لا تسير على وتيرة واحدة ، بل إنها تتغير وتتطور على الدوام ؛ ويكون هذا التطور تارة على شكل تقدم واعتلاء ، وطوراً على شكل تقهقر وانحطاط .

والأمة العربية خضعت لهذا القانون العام ، مثل سائر الأمم ؛ وتعرضت لتطورات كثيرة وكبيرة طوال تاريخها المديد . ولكنها شذت عن سائر الأمم بالاختلاف الذى بدا بين ماضيها وحاضرها خلال هذه التطورات :

---

* توفى إلى رحمة الله فى بغداد يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٦٨ م — والمجلة فى المطبعة — العالم العربى المرحوم الأستاذ ساطع الحصرى .

وأسرة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة تبكى فيه البانى الأول لأسس هذا المعهد ، والعالم الحجة فى تاريخ القومية ، وتتقدم إلى أهله وذويه بخالص العزاء .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

إنها كانت خارقة للعادة في وثبتها نحو المجد والاعتلاء ؛ ولكنها صارت – بعد ذلك – خارجة على المألوف في انحدارها السريع نحو التقهقر .

فلنلق نظرة سريعة على ماضي الأمة العربية : لنترك جانباً ما يعود منه إلى التاريخ القديم ؛ ولنغض النظر عن الأدوار الهامة التي لعبتها ، في تاريخ الحضارة ، الشعوب التي نزحت من الجزيرة العربية في مختلف العصور . ولنقف قليلا أمام الوثبة الكبرى التي قامت بها الأمة العربية بعد هجرة النبي العربي العظيم :

قامت الأمة العربية بفتوحات خارقة للعادة ، جعلت حكمها يمتد – قبل انتهاء القرن الأول للهجرة – حتى شواطىء المحيط الأطلسي من ناحية ، وحتى هضبات الصين وأنهر الهند من ناحية أخرى . وفتح العرب بهذه الصورة خلال قرن واحد ، بلاداً أوسع بكثير مما فتحه الرومان خلال ثمانية قرون .

وقد رافقت هذه الفتوحات السريعة والعظيمة ، وأعقبتها ، حركات ثقافية وحضارية جبارة ، أوصلت العرب إلى أعلى المراتب في العلوم والآداب والصناعات .

صارت الأمة العربية حيناً من الدهر ، أرقى أمم الأرض على الإطلاق ، في جميع ميادين الحضارة . ومما لا جدال فيه ، أنها كانت معلمة الغرب وباعثة النهضة فيه ، في أواخر القرون الوسطى وأوائل عهد الانبعاث .

والمؤلفات العربية صارت أثمن وأغزر منابع العلم والبحث ، في جميع مجالات التفكير ، مدة قرون عديدة .

والكلمات العربية التي تسربت إلى اللغات الأوروبية – والتي لاتزال تعيش فيها – تعطينا أبلغ الأدلة على عمق تأثير الأمة العربية في الحضارة الغربية .

مثلا ؛ إن القطن والرز والسكر تسمى – في عدة لغات أوروبية – بأسماء مقتبسة من العربية ، مما يدل على أن الأوروبيين تعلموا زراعة هذه المواد وصناعتها من العرب .

وإن أرق أنواع المنسوجات تعرف في الغرب باسم « موسلين » Mousseline ؛ وذلك يشهد على أن تلك المنسوجات كانت تنسب إلى مدينة الموصل المشهورة في شمالي العراق .

ونوع فاخر من الأقمشة لا يزال يعرف في الغرب باسم الـ « داماسقو » Damasco وهذه الكلمة محرفة من اسم « دمشق » .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

وأدق الجلود تسمى فى عدة لغات أوروبية « ماروكين » Marocain وهذه الكلمة متحدرة من اسم مراكش .

وأجود أنواع الصوف المعروفة فى أسبانيا ، يسمى « مرينوس » Merinos وأصل هذه الكلمة يرجع إلى « بنى مرين » ، الذين ملكوا الأندلس فى عهد من عهودها العربية الزاهرة .

والجمارك تسمى فى كثير من اللغـات الأوروبية بأسماء محرفة من كلمة « الديوان » المعروفة فى العربية Dauane, Dogana .

وكلمة « ما غازين » الدارجة فى اللغات الغربية بأشكال مختلفة ، أصلها العربى كلمة : مخزن . وشكلها الأسبانى يشهد على هذا الأصل شهادة صريحة : Almacen .

وكلمة « آرسينال » ، « ترسانة » التى يستعملها الأوروبيون للدلالة على المصانع والمخازن الحربية والبحرية كذلك ، محرفة من كلمة عربية هى دار الصناعة . وشكل هذه الكلمة فى الأسبانية لا يترك مجالا للشك فى هذا الأصل العربى : دارسانا Darsana .

والعلوم نفسها لاتزال تحتفظ بكثير من الأسماء العربية : كلمة الجبر أو الجبرا Algébre مشتقة من « الجبر والمقابلة » . وكلمات الأمبيق Alambic والكحول Alcool والملغمة Amalgame وآليزارين Alizarine كلها تنحدر من أصول عربية .

واسم آلة الرصد المعروفة « آليداد » Aildade رف من كلمة « العضاد » العربية . ومن المؤكد أن أصل كلمة « آزيموت » Azimut المعروفة فى علم الفلك هو « السمت » العربية . كما أن أصل كلمة « نادير » Nadir التى تدل على عكس الكلمة السابقة هو « النظير » .

حتى أسماء النجوم المعروفة عند علماء الفلك الغربيين لا تخلو من كلمات عربية : آلتار Altar هو « النسر الطائر » ، وفيغا Vega هو « النسر الواقع »

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

و « فامالحوت » Famalhot ما هو إلا « فم الحوت » ، و « بتلجوز » هو « بيت الجوزاء » .

ولا حاجة إلى القول إن هـذه الكلمات والاصطلاحات العلمية والحضارية المتنوعة — وأمثالها الكثيرة — التى لا تزال تستعمل فى اللغات الغربية إنما هى من مخلفات عهد كانت فيه اللغة العربية مرجعاً للعلم ، والبلاد العربية موئلا للحضارة.

فى ذلك العهـد ، كان رجال الفكر والعلم فى البلاد الأوروبية ينهلون من مناهل العلم القائمة فى الأندلس ، ويتهافتون على درس المؤلفات العربيـة من ترجماتها اللاتينية أو من نصوصها الأصليـة . وصارت الجامعات تتنافس على اقتناء الكتب العربية ، واستكمال وسائل تعليم اللغة العربية . وكان علماء الفلك مثلا يصرحون بأن معرفة اللغة العربية ضرورية لمن يريد أن يحيط بحقائق هـذا العلم . وكان رجال الفكر يعترفون — بوجه عام — أن التبحر فى العلم والفلسفة لا يمكن أن يتم من غير درس المؤلفات العربية .

وفى أواخر ذلك العهد ، صار المفكرون — فى البلاد الغربية — يتساءلون: أيمكن الاستغناء عن اللغة العربية فى تحِصيل العلوم ؟

ومن أبلغ الأدلة على ذلك ما قاله « بترارك » Petrarch الشهير ، فى أوائل القرن الرابع عشر للميلاد . ومن المعلوم أن بترارك يعتـبر من آباء الأدب الإيطالى ، ومن المبشرين بالنهضة الأوربية . وهذه ترجمة حرفية لما كان كتبه هذا الأديب المفكر فى هذا الشأن :

« ماذا تقولون ؟ استطاع شيشرون(١) أن يكون خطيباً بعد ديموستين(٢) وصار فيرجيل(٣) شاعراً بعد هوميروس(٤) ؛ وأنتم تتوهمون مع ذلك بأنه لن

---

(١) Ciceron أشهر خطباء الرومان .
(٢) Démosténe أعظم خطباء اليونان .
(٣) Virgile أشهر شعراء الرومان .
(٤) Homére أعظم شعراء اليونان .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

ينبغ أحد بعد العرب ! نحن قد ضاهينا اليونان ، حتى إننا سبقناهم فى بعض الأحيان ؛ وضاهينا وسبقنا بذلك جميع الأمم . وأنتم تقولون الآن : إننا لن نضاهى العرب !.. هل تخدرت عبقرية الطليان وخبت إلى هذا الحد ؟ » .

ويتبين من هذه الصيحة الحماسية بكل وضوح وجلاء : أن فى عهد بترارك الشهير ، كان فى البلاد الأوروبية من يقول بعدم إمكان مضاهاة العرب ، ومن يعتقد باستحالة الاستغناء عن اللغة العربية فى الشئون الفكرية . أفليس من المؤلم حقاً أن تنعكس الآية الآن ، وتقوم بيننا جماعة تتساءل وتتناقش أيمكن تعليم العلوم الحديثة باللغة العربية ؟ .

لقد سمعت مناقشة حادة حول هذه المسألة فى المؤتمر العلمى العربى الأول الذى انعقد فى الإسكندرية قبل بضعة أشهر . واطلعت أخيراً على استفتاء يدور حول هذه المسألة فى مجلة الآداب التى تصدر فى بيروت .

وأعتقد أن هذه الحالة ، هى من أبلغ الأدلة وأصدق المقاييس على البون الشاسع الذى باعد بين ماضى الأمة العربية وبين حاضرها .

لا شك فى أن الأمة العربيـة كانت قد وصلت إلى أعلى المراتب فى العلم والحضارة . ولـكنها بعد ذلك ، انقطعت عن التقدم ، وجمدت فى مكانها ، ثم أخذت تتقهقر فى جميع الميـادين : مدارسها أهملت العلوم بأجمعهـا ، علماؤها وأدباؤها صـاروا يقتصرون على اجترار الأبحاث الدينية واللغوية القديمة ، من غير ابتكار ولا تجديد .

وقد حدث ذلك كله ، فى الوقت الذى أخذ الأوربيون ينهضون نهضتهم المعلومة ، بفضل العلوم التى اقتبسوها من العرب ؛ ثم صـاروا يتقدمون فى ميادين الابتكار فى الاختراع بسرعة كبيرة ، تتزايد يوماً بعد يوم .

واستمر الحال على هذا المنوال قروناً عديدة ؛ تخلفت خلالها الأمة العربية عن ركب الحضارة والعلوم تخلفاً كبيراً .

نعم ؛ إننا ، معاشر العرب ، تخلفنا عن قافلة الحضارة ، بعد أن كنا نسير فى طليعتها ؛ تأخرنا عن معظم شعوب العالم المتمدن ، بعد أن كنا نسبقها جميعاً .

وبقينا مدة قرون عديدة ، نزداد تخلفاً وتأخراً فى جميع الميادين .

وفضلا عن ذلك ، لقد ظللنا غافلين عن تخلفنا هذا ، وغير شاعرين بالأخطار التى صارت تحيق بنا من جراء هذا التخلف . حتى إننا صرنا — فى حقبة من الزمن — ، نعتبر الجمود فضيلة ، ونتمسك بأحوالنا الراهنة تمسكاً شديداً .

إلى أن بدأنا — منذ قرن تقريباً — نشعر بتخلفنا عن ركب الحضارة ، ثم صرنا ندرك الأخطار التى نتعرض لها من جراء بقائنا متخلفين عنه ، وأخيراً أخذنا نعمل لتلافى ما فاتنا خلال هذه الفترة ، وصرنا نساير تطورات العالم الحديث فى مختلف ميادين الحياة ، من علم وتشريع واقتصاد وصناعة . . وأخذنا — منذ ربع قرن بوجه خاص — نسرع الخطى فى هذا السبيل .

إننا لا نزال بعيدين عن الهدف المنشود ؛ ولكننا سائرون نحوه على كل حال . إننا لا نزال متخلفين عن قافلة الحضارة ؛ غير أننا عاملون على اللحاق بها على الدوام .

— ٢ —

على أننا بقينا بعيدين عن مسايرة التطورات العالمية فى ميدان آخر ، مدة أطول . هذا الميدان ، هو ميدان « الوعى القومى » .

إننا لم نساير التطورات العالمية فى هذا الميدان ؛ وتخلفنا عن جميع الأمم فى هذا المضمار ؛ وبقينا فى شبه غفلة عن هذا التخلف إلى عهد قريب . إننا لم نشعر بعد شعوراً واضحاً بوحدة الأمة العربية ، ولم نقدر بعد تقديراً كافياً فداحة الأضرار التى تعود علينا من جراء بقائنا متخلفين عن التطورات العالمية فى هذا الميدان .

فإننا إذا ألقينا نظرة فاحصة على تاريخ أوروبا منذ أوائل القرن التاسع عشر وجدنا أن أهم الانقلابات السياسية فيها حدثت بتأثير « مبدأ حقوق القوميات » ؛

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

ومن المعلوم أن هذا المبدأ يتلخص بما يلى : إن الدول يجب أن تتأسس على أساس القوميات، فتكون كل أمة دولة قائمة بذاتها . وتستقل الأمة ، إذا كانت خاضعة لحكم أمة أخرى ، وتتحد الأمة إذا كانت منقسمة إلى دول عديدة .

إن انتشار هذه الفكرة وهذا المبدأ، أوجد انقلاباً كلياً فى الأوضاع الدولية. فقد فكك أوصال بعض السلطنات، ووحد أجزاء بعض الأمم ، وغير بذلك معالم خريطة أوروبا السياسية تغييراً جوهرياً .

لقد اعتدنا أن نظهر اهتماماً خاصاً بأبحاث الثورة الفرنسية . صرنا ندرس وندرس وقائع هذه الثورة ، بكل تفاصيلها ، نستعرض الأحزاب التى تكونت وتتابعت خلال الثورة، ونستقصى الاختلافات التى نشبت بين هذه الأحزاب. ولكننا لانهتم الاهتمام الكافى بالأبحاث المتعلقة بالانقلابات السياسية التى نجمت عن انتشار فكرة القوميات وانتصارها .

لأننا لم نلتفت إلى حقيقة تاريخية هامة ، وهى أن الثورة الفرنسية أدت إلى تغير نظم الحكومات، ولكنها لم تمس كيان الدول . فى حين أن فكرة القوميات أثرت فى كيان الدول نفسها ، وأعادت بناء الكثير منها على أسس جديدة ، تختلف عن الأسس السابقة اختلافاً هائلا .

فى الواقع أن الثورة الفرنسية أوجدت بعض الانقلابات الدولية ، ولا سيما فى عهد الإمبراطورية التى قضت على كيان بعض الدول القديمة، ومقابل ذلك خلقت بعض الدول الجديدة . إلا أن هذه الأوضاع المصطنعة لم تعمر طويلا ، إذ أنه عندما سقطت الإمبراطورية ، عادت الأوضاع إلى ما كانت عليه قبلا ، دون تغيير ذى بال .

ولكن الانقلابات السياسية والدولية التى حدثت من جراء قيام « مبدأ القوميات » أنتجت أوضاعاً جديدة ، ظلت قائمة إلى الآن . منها أنها سببت انفصال البلجيك عن هولندا ، والنرويج عن السويد ، وإيرلندا عن انكلتره، وفنلاندا عن روسيا ، واليونان وبلغاريا ورومانيا وصربيا وألبانيا عن تركيا ، والمجر مع الشعوب السلافية عن النمسا . وبعكس ذلك كله ، أدت إلى اتحاد

موندافيا مع فلاخيا لتكوين رومانيـا ، واتحاد الدول والدويلات الجرمانيـة لتكوين ألمانيا ، كما أدت إلى وحدة إيطاليا من ناحية ، ووحدة يوغوسلافيا من ناحية أخرى .

قارنوا خريطة أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر ، مع خريطتها الحالية ، تجدوا أنها تغيرت تغيراً هائلا فى معظم أقسامها . ولا نغالى إذا قلنا إنها انقلبت رأساً على عقب فى بعض الأقسام .

وقد كان العامل الأصلى فى جميع هذه الانقلابات الأساسية هو انتصار فكرة القوميات وانتشارها .

أخذت الأمم تشعر بكيانها الخاص وشخصيتها المعنوية ، وصارت تعمل لدعم كيانها القومى بكيان سياسى . ولذلك تفككت أوصال الدول التى كانت مؤلفة من قوميات عديدة ، وبعكس ذلك اتحدت الأمم التى كانت مقسمة إلى عدة دول .

وأما نحن معاشر العرب ، فقد بقينا خلال الانقلابات التى ذكرناها آنفاً، بعيدين عن الشعور بقوميتنا .

استسلمنا أولا إلى الحكم العثمانى استسلاماً يكاد يكون تاماً ، ثم انقسمنا إلى دول ودويلات عديدة، وبين هذه الأوضاع المعقدة لم نشعر شعوراً واضحاً بأننا أبناء أمة واحدة ، فلم نعقد العزم على لم شعث هذه الأمة .

هذا فى الوقت الذى أتم الغرب إعادة بناء دوله على أساس القوميات ، وفى الوقت الذى أخذت هذه القومية نفسها تتكتل فيما بينها لتكوين منظمات دولية ، تزيدها قوة ومنعة ومهابة .

— ٣ —

لماذا تأخرنا فى هذا المضمار كل هذا التأخر ؟ .

إن أسباب ذلك كثيرة ومتنوعة .

ولا شك فى أن أول هذه الأسباب وأقدمها هو : السلطة المعنوية التى كانت تتمتع بها السلطة العثمانية ، باعتبارها « دولة الخلافة الإسلامية » .

هذه السلطـة المعنوية القوية كانت تخدر فينا روح « القومية العربية » ، وتجعلنا ننسى أن لنا قومية خاصة متميزة عن الأتراك العثمانيين حتى أننا لم ننتبه إلى أن هذه الأمة أخذت تفقد شخصيتها بسبب إهمال لغتها .

استمر الحال على هذا المنوال مدة طويلة ، حتى أنه عندما بدأت جماعة مستنيرة من الناطقين بالضـــاد تنتبه إلى ذلك وتطالب بحقوق العرب وتتكلم عن حقوق اللغة العربية ، قامت جماعات كبيرة تعارضهم معارضة شديدة ، زاعمة بأن هذه المطالب تسىء إلى الرابطة العثمانية وتنافى الأخوة الإسلامية .

واستمر هذا التـأثير المعنوى يعمل عمله فى نفوس الكثيرين من متنورى العرب ... إلى أن قام الكماليون يحاربون الجيش الذى جرده « الخليفة» ضدهم . وإلى أن فضح الأتراك أنفسهم أنواع المساوىء التى كانت تتستر وراء ستار « الخلافة » يومذاك .

ولكن هناك عاملا آخر ، انضم إلى هذا العامل القديم وساعد على تأخرنا فى ميدان الوعى القومى ، حتى بعد بدء حركات النهضـة الأدبيـة والفكرية والاجتماعية فى مختلف الأقطار العربية .

ذلك أننا عندما بدأنا نتصل بالغرب ونقتبس منه العلوم والثقافة ، توجهنا بأنظارنا وأذهاننا إلى فرنسا فانكلترة وحدهما . وأخذنا معلوماتنا التاريخية ونزعاتنا السياسية من الفرنسيس والإنكليز وحدهم . وتأثرنا بنظرات ونظريات هؤلاء دون غيرهم .

ولكن هؤلاء لم يكونوا ممن ينظرون إلى الحركات القومية بعين الرضا والارتياح ، لأسباب تتعلق بمصالحهم الخاصة ومطامحهم السياسية .

ففرنسا كانت أتمت وحدتها السياسية منذ قرون عديدة ، فما كانت تعانى من الشقاء والمشـاكل ، ما عانته الأمم المفككة الأوصـال ، ولذا لم تشعر

بحاجة إلى كفاح قومى من النوع الذى احتاجت إليه إيطاليا وألمانيا .

وفضلا عن ذلك ، فإن فرنسا كانت تنزع على الدوام إلى التوسع شمالا حتى نهر الراين ، لأنها كانت تعتبر هذا النهر « حدوداً طبيعية » لها . ولكن تحقيق هذه الأمنية كان يعنى الاستيلاء على مقاطعات ألمانية عديدة ، وكان « مبدأ القوميات » ينافى ذلك منافاة تامة .

وفى الأخير ، كانت حركات الوحدة الإيطالية والوحدة الألمانية تهدد مصالح فرنسا فى الصميم . فإن تكلل تلك الحركات بالنجاح حرم فرنسا من المكانة الممتازة التى كانت أحرزتها قبلا ، إذ كانت أعظم الدول وأقواها فى غرب أوروبا . وكانت محوطة بدول عديدة ، كلها أقل شأناً منها بدرجات. ولا سيما حدودها الشمالية ؛ كانت متاخمة لعدة دويلات صغيرة ضعيفة ومتنافسة ، ومتنابذة . ولكن انتصار « الفكرة القومية » فى إيطاليا وألمانيا ، غير هذه الأوضاع ، وجعل فرنسا جارة لدولتين عظيمتين جديدتين ، إحداهما تضاهيها فى غير قليل من الأمور ، والثانية تتفوق عليها تفوقاً عظيما فى كثير من الأمور .

ونظراً لجميع هذه الأسباب كان من الطبيعى أن يقف كتاب فرنسا ومفكروها أمام مبدأ القوميات ، موقفاً أقرب إلى المقت والسخط ، منه إلى الرضى والارتياح . وكان من الطبيعى أن يلجأ عدد غير قليل من هؤلاء الكتاب والمفكرين ، إلى اختلاق آراء ونظريات تحد من فاعلية « الفكرة القومية » ، وتقلل من شأنها ، وتحول دون رؤية الحوادث التاريخية على وجوهها الصحيحة .

وكذلك إنكلتره . فهى أيضاً لم تنظر إلى الحركات القومية التى قامت فى غرب أوروبا وجنوبها بعين الارتياح . لأن هذه الحركات خلقت دولتين بحريتين جديدتين ، إحداهما فى أواسط البحر الأبيض المتوسط . والثانية على شواطىء المحيط الأطلسى ، وعرضت بذلك « سيادة إنكلتره على البحار » لأعظم الأخطار .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

طبعاً ، ماكان فى استطاعة الكتاب والمفكرين — فى فرنسا وإنكلتره — أن ينكروا الحقائق الراهنة ، ويتجاهلوا تاريخ وحدة إيطاليا ووحدة ألمانيا . ولكنهم ماكانوا يولونها حقها من الاهتمام ، حتى إنهم لم يتوانوا عن وصمها بوصمات جائرة أيضاً فى بعض الأحيان .

وأنا لا أشك فى أن تأثرنا بآراء ونظريات الفرنسيس والإنكليز وحدهم .. وعدم توسعنا فى درس الحركات القومية التى قامت فى إيطاليا وألمانيا والبلقان ، درساً جدياً . . . كان من أسباب تأخرنا فى تقدير خطورة الحركات القومية بوجه عام ، وفى تكوين فكرة القومية العربية بوجه خاص .

ولكن أهم العوامل التى عملت على تأخرنا فى « ميدان الوعى القومى » ، هى : الأوضاع السياسية التى خلفتها المطامع الاستعمارية فى البلاد العربية ، والنزعات الإقليمية التى تولدت عن تلك الأوضاع .

إن الدول الاستعمارية الكبيرة ، استولت على مختلف البلاد العربية — قطراً بعد قطر — ، فى تواريخ مختلفة ، وفى ظروف متنوعة . وصارت تحكمها بأساليب مختلفة . وأوجدت فى كل قطر منها أنظمة إدارية وتشريعية واقتصادية وثقافية خاصة ، تختلف عما فى غيرها اختلافاً كبيراً .

وسكان هذه الأقطار العربية المغلوبة على أمرها ، لم يستسلموا إلى السيطرة الأجنبية استسلاماً تاماً ؛ بل أخذوا يكافحونها ويثورون عليها كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا . وهذه الثورات أخذت شكلا خاصاً فى كل قطر من هذه الأقطار ، وانتهت فى بعضها إلى تكوين حكومات وطنية ، بعضها « مستقلة استقلالا مقيداً بمعاهدة سياسية واحتلال عسكرى » وبعضها « مستقلة استقلالا مطلقاً » . ولكن ... حتى الأقطار التى استقلت استقلالا غير مقيد بمعاهدة أو احتلال ، لم تتخلص من معظم النظم والأوضاع التى كانت خلفتها وفرضتها السلطات المستعمرة ، إبان حكمها الطويل .

ولا حاجة إلى القول بأن انقسام البلاد العربية بهذه الصورة إلى دول عديدة ، تتميز كل واحدة منها عن غيرها بعلم خاص ، وحكومة خاصة ، ونقد خاص ،

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

وأنظمة خاصة . . . أوجد بعض النزعات الإقليميـة . وهذه النزعات انضمت إلى العوامل التى أعاقت تقدمنـا فى ميدان « الوعى القومى » ، وجعلتنـا نتأخر فى الشعور بأننا « أبنـاء أمة واحدة ، على الرغم من اختلاف أوضاعنا السياسية وتعدد دولنا القائمة » .

— ٤ —

هذه هى العوامل الرئيسية التى سببت تأخر الأمة العربيـة فى ميدان « الوعى القومى » مدة أطول من تأخرها فى سائر الميادين .

ولكن يجب أن نلاحظ — بعين الغبطة والسرور — أن هذه العوامل لم تعد الآن « قوية التأثير » كما كانت قبلا . بل إن هذا التأثير آخذ فى التضاؤل شيئاً فشيئاً .

فى الواقع أن النزعات الإقليمية المتولدة من انقسام البلاد العربية إلى دويلات عديدة ، لا تزال تسيطر على نفوس بعض الناس فى مختلف الأقطار العربية . غير أننا نستطيع أن نجزم بأن هذه النزعات أيضاً محكوم عليها بالتلاشى والزوال .

وذلك لأن أهم مصادر القوة فى النزعات الإقليمية هو عدم الاطلاع ، وعدم التقدير . عدم الاطلاع على ما يجرى فى سائر البلاد العربية اطلاعاً شاملا، وعدم الاطلاع على أصول الأحوال الراهنة ومنابعها الأصلية ودوافعها الحقيقية ؛ ثم عدم تقدير المصالح الحقيقية الأساسية التى تربط مختلف البلاد العربية بعضها ببعض ، وعدم تقدير الأخطار التى تنجم عن بقاء البلاد العربية متجزئة ومفككة الأوصال ، كما هى الآن .

هذه هى الأمور التى تفسح المجال لتكوين النزعات الإقليمية وإدامتها .

ولا حاجة إلى القول بأن هذه الأمور لا يمكن أن تستمر على هذا المنوال ، بين تيارات الأحداث التى تجرف العالم جرفاً .

وكلما زاد التعامل والتعارف بين الأقطار العربية ؛ وكلما تعمق المفكرون الوطنيون فى بحث حقيقة الأحوال الراهنة من ناحية ، وكلما تبصروا فى عواقب

هذه الأحوال من ناحية أخرى ؛ وكلما شاهد الناس بأم أعينهم النكبات التى توالت ولا تزال تتوالى على البلاد العربية من جراء هـذا التشتت ... ضعفت النزعات الإقليمية المختلفة ، واستيقظت روح القومية العربية .

ولذلك كله ، نستطيع أن نقول : إن تطور الأحوال الاجتماعية والسياسية فى البلاد العربية يسير على الدوام ، نحو إضعاف النزعات الإقليمية ، وتقوية الإيمان بوحدة الأمة العربية .

* * *

ولـكن ، يجب ألا يعزب عن بالنا أن التطور الطبيعى يكون بطيئاً بوجه عام ، إذا لم يقترن بمساع جدية تبـذل فى سبيل مساعدة هـذا التطور والإسراع فيه .

ولا يجوز لنا نحن ــ بعد أن تأخرنا كثيراً فى هذا المضمار ــ أن نترك الأمور تسير سيرها الطبيعى الوئيد ؛ بل يترتب علينا أن نعمل كل ما يمكن عمله لتعجيل هذا التطور ، وجعله يسير سيراً أقرب إلى الهرولة ، على قدر الإمكان .

إن أهم أهداف هـذا المعهد هو المشاركة فى الأعمال التى ترمى إلى تعجيل التطور الذى ذكرته آنفاً ، وتقوية فكرة القومية العربية بين جميع الناطقين بالضاد ، بأحسن الصور وأنجع الوسائل .

وقد حدد النظام الأساسى الذى قرره مجلس جامعة الدول العربية أغراض المعهد ــ فى مادته الأولى ــ بالعبارات التالية :

« يعمل معهد الدراسات العربية العالية على تحقيق الأغراض الآتية :

أولا : إعداد شباب عربى مثقف ثقافة عربية عالية .

ثانياً : نشر الثقافة العربيـــة عن طريق التدريس والتأليف والنشر والمحاضرات العامة .

ثالثاً : إقامة فكرة القومية العربية على أسس علمية صحيحة .

رابعاً : تكييف أسس الثقافة العربية بحيث تنتفع من تقدم المدنية الحديثة » .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

إن أولى المهـام التى سيتولاها هذا المعهـد ، لتحقيق هذه الأغراض هو الدرس والبحث :

(ا) درس الأحوال الراهنة فى مختلف أقطار العـالم العربى ، من وجوه السياسة والإدارة والاقتصاد والتشريع والأدب درساً علمياً .

(ب) مقارنة هذه الأحوال مقارنة دقيقة لإظهار الفروق والمشابهات القائمة بين هذه الأقطار من الوجوه المذكورة .

(ج) بحث عوامل هـذه الفروق والمشـابهات ، واستكشاف الظروف التى أوجدتها .

(د) تحرى الوسائل التى تساعد على إزالة الفروق وزيادة التقارب والتشابه بين الأقطار العربية .

إن التدريسات التى يقوم بها المعهـد أيضاً تهدف إلى الدرس والبحث من حيث الأساس .

إنها تسعى إلى حمل الطلاب على درس الشئون العربيـة ، مع تزويدهم بالوسائل اللازمة لذلك ؛ ليقوم كل واحد منهم بأبحاث جديدة ، خلال تحضير الرسالة التى يتقدم بها لنوال شهادة الماجستير تحت إشراف الأساتذة ، ثم يواصل العمل فى هذا السبيل بمفرده ، بعد التخرج من المعهد .

ولذلك ، نحن نعتبر الدراسات التى سيقوم بها الأسـاتذة أولا ؛ والطلبة ثانياً ، والمتخرجون أخيراً . . . من أينع الثمرات المرجوة من معهد الدراسـات العربية العالية .

ولكننا ننتظر من أعمال المعهد ثمرة أخرى ، أهم وأسمى من كل ما ذكرته آنفاً ، ألا وهى : تنشيط الوعى القومى فى العالم العربى ، مع إشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية وبث الإيمان بمستقبلها .

وأرجو ألا يفهم من كلامى هذا ، بأننا سنلجأ إلى أساليب الدعاية والتبشير .

وأؤكد — بعكس ذلك — بأننا سنبنى دروسنا ودراساتنا على أسس متينة من العلم الصحيح ، ولن نخرج عن نطاق الأبحاث العلمية فى وقت من الأوقات .

ولكننا نعتقد أن مجرد معرفة الحقائق، مع الاطلاع على الأسباب والمسببات ، ستولد فى النفوس إيماناً راسخاً بأن العرب أمة واحدة ، على الرغم من تعدد دولها ، وبأنه لا يمكن هذه الأمة أن تنال المكانة التى تستحقها ، حتى ولا أن تحافظ على كيانها — فى هذا العالم المليء بالعواصف — طالما بقيت على ماهى عليه من التفرق والتبلبل .

إننا سنسعى إلى تقوية فكرة « القومية العربية » ، ولكننا سنفعل ذلك مستندين إلى الحقائق العلمية على الدوام، سندعم جميع دراساتنا — من قانونية ، واقتصادية ، وتاريخية ، وأدبية — بدراسات ومباحث تحوم حول «القوميات» بوجه عام ، و « القومية العربية » بوجه خاص .

سنستكشف عناصر القومية ومقوماتها ، باستعراض جميع النظريات التى ظهرت والمناقشات التى دارت حولها ، لنتوصل إلى معرفة عناصر القومية العربية ومقوماتها ، على ضوء تلك النظريات والمناقشات . كما أننا سنتتبع كيفية نشوء « الفكرة القومية » ، فى مختلف البلاد الغربية والشرقية ، بتفاصيل وافية ، لنستنير بها فى أمور « القومية العربية » .

إننا سنهتم بهذه الأبحاث اهتماماً بالغاً ، لأننا لا نرضى أن تكون « القومية العربية » فكرة غامضة ، تجول فى الخواطر ، من غير أن تستقر على شكل واضح . إنما نريدها فكرة نيرة قوية ، قائمة على أسس متينة وعميقة من العلم الصحيح . . .

نريدها فكرة واضحة فعالة ، تهدى العقول ، وتثير العواطف ، وتشحذ الهمم ، وتدفع إلى العمل ، وتبعث الإيمان فى النفوس . .

ولذلك قلت : إن أهم الثمرات التى نرجوها من أعمال هذا المعهد ومساعيه،

هى تنشيط الوعى القومى فى العالم العربى مع إشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية وبث الإيمان بمستقبلها .

* * *

وإنى لأشعر الآن بسرور عميق وغبطة بالغة ، إذ أفتتح العام الدراسى الأول فى هذا المعهد ، وكلى أمل بأنه سيوفق إلى تأدية الرسالة الملقاة على عاتقه ، فى سبيل خدمة الأمة العربية ، عن طريق الأبحاث العلمية .

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية